شخصية فرعون بين النص القرآني والرواية العربية
(روايات نجيب محفوظ الفرعونية انموذجاً)

أ.م.د سلافة صائب العزاوي
جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد

فرعون في القرآن الكريم:

يشيع بين الناس أن من يتجبر في الأرض ،أو يشيع الفساد فيها يقال له (فرعون) . قال تعالى : (إذهب الى فرعون إنه طغى)(١) ، ففرعون لقب كل من ملوك مصر كالعزيز لكل من ملكها (٢) . وقيل هو اسم ذلك الملك بعينه (٣) وقيل إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة ، مثل كسرى للفرس، واختلفوا في اسم فرعون موسى هل هو قابوس، أو الوليد بن مصعب .ويبدو أن كل عاتٍ فرعون ، والعتاة : الفراعنة ، وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر . وفرعون مصر الذي بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام في زمانه جعل بني إسرائيل خدما وخولاً وصنفهم في أعماله ، فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يخدمون ، وكان قومه جنداً وملوكاً ، ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية ؛ ليصبح فقيراً يضطر الى عمل الخدمة ، وهذا سوء العذاب ، وكان يذبح ذكور أطفالهم مبقيا على اناثهم ، وعبر القرآن عنهم بالنساء على اعتبار ماستؤول إليه حالهم (٤).

وقيل لعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن فلان إذا عتا وتجبر(٥) ، ومن مظاهر جبروت فرعون وتبجيله أنهم وضعوا له ألقاباً وأسماء رسمية تطلق عليه بمجرد اعتلائه عرش الملك ، واكتمل تكوين هذه الالقاب والأسماء في أواخر عهد الأسرة الرابعة ، ووصل عددها الى ستة ، ومنها صورة طائر الصقر والصل والنسر والنبات والنحلة ، ثم صور القاهر ، ثم ابن الشمس (٦).

وهناك من يرى أن كلمة فرعون ليست اسمه الحقيقي ، وهي ليست كذلك لقبه الرسمي ، "وكل ما في الأمر أنها لفظ كانوا يدلون به على أحد العظماء الذين يتهيبون من ذكر أسمائهم ، كما كان يذكر التركي (الباب العالي)، إذا عنى السلطان وحكومته ، وعلى هذا القياس كان المصريون يطلقون لفظة (فرعون) على ملكهم العظيم ومعناها اللغوي (البيت العظيم) " (٧)

وفرعون الذي ذكر في القرآن الكريم هو الوليد بن مصعب بن الريان وهو الذي بعث له سيدنا موسى عليه السلام أما الثاني هو الذي بعث له سيدنا يوسف عليه السلام وهو جد الذي ذكر أولاً وهو الريان بن مصعب الوليد. و سيكون محور البحث هو الحفيد لاالجد لأنه الذي ذكرفي القرآن على انه

(فرعون) أما الاخر فذكر بلفظ (ملك) لا (فرعون) (٨).

ومن مظاهر علوه وتجبره أنه عذب امرأته لما آمنت برب موسى وهارون عليهما السلام ، فقد كان فرعون هذا عدواً من أعداء الله كافراً به ، فكان يعذب زوجه بالشمس ، فإذا انصرف أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة ، وكانت مع عذابها وألمها تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون ، فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون ، فقال : أنظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وان رجعت عن قولها فهي أمرأته ، فلما أتوها رفعت بصرها الى السماء ، فأبصرت بيتها في السماء ، فمضت على قولها ، فانتزع الله روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح (٩) . فلشدة جبروته وطغيانه لم يترك لأحد مجالاً ليفكر في عقيدته أو دينه ، بل على الجميع أن يكونوا عبيده تابعين له في الرأي قولاً وفعلاً ، بل إن تجبر فرعون على غيره امتد من زوجه الى الناس ،فقد آذى بني إسرائيل الذين آمنوا بنبوة سيدنا موسى عليه السلام وسامهم سوء العذاب ، فذبح ابناءهم ،واستحيا نساءهم ، بل ان آله تبعوه في ظلمه وصاروا معه في حكم الفراعنة ، وذكر انه من ظلمه كان يأمر "بالقصب فيشقّ حتى يجعل أمثال الشفار ، ثم يصف بعضه الى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل ، فيوقفن عليه ، فيحز أقدامهن ، حتى أن المرأة منهن لتمصع بولدها ، فيقع من بين رجليها ، فتظل تطؤه تتقي به حد القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها ، حتى أسرف في ذلك ، وكاد أن يفنيهم ، فقيل له : أفنيت الناس وقطعت النسل ، وأنهم خولك وعمالك ، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً ، فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان ، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون "(١٠). والمظهر الآخر من جبروته أنه يعتمد في سياسة شعبه على حلمه فيقتل الآلاف منهم لمجرد رؤيا رآها ، ثم فسرها له السحرة ، فقد كان من شأنه أنه رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس ، حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل ، وأخربت بيوت مصر ، فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والحازة ، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو اسرائيل منه - يعنون بيت المقدس - رجل يكون على وجهه هلاك مصر ، فأمر بني اسرائيل أن لا يولد لهم غلام الا ذبحوه ، ولا تولد لهم جارية الا تركت ، وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم ، وأجعلوا غلمانهم ، وأدخلوا غلمانكم ... " (١١) . ومصداق كلامنا عن تجبره وفتكه بالناس أن السحرة الذين يستعين بهم الملوك عادة ليفسروا الاحلام اعترفوا على أنفسهم أنهم لا يجيدون تأويل الاحلام ، قال تعالى على لسان هؤلاء السحرة لما طلب منهم عزيز مصر أن يفسروا له حلماً رآه في سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات : (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) (١٢) . فكيف يأخذ ملك الناس بحلم رآه وفسره له السحرة ، فيقتلهم بلا ذنب ولا جريرة ؟ ومن مظاهر تجبره كذلك أنه أول من سن طريقة مؤلمة في التعذيب إذ أنه أمر بقطع أيدي السحرة وأرجلهم من خلاف ، فهو يقطع من أحدهم يده اليمنى ، ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى ، فيخالف بين العضوين في القطع ، مخالفته في ذلك بينهما ، هو القطع

من خلاف ، ويقال : إن أول من سنّ هذا القطع فرعون(١٣) . ولو نظرنا الىهذا النوع من العذاب نجد فيه أن فرعون قد أمر بقتل بطيء لهذا الانسان المعذب فينزف من جسده كله بلا قدرة على منع النزف ؛ لانه لو قطعت يده ورجله اليسرى لانقلب على جانبه الأيسر بحكم الفطرة فيتوقف النزف حتى يهب الى نجدته احد ، ولو قطع يده ورجله اليمنى لانقلب على جانبه الايمن ليمنع النزف في انتظار من ينجده. أما وقد قطعت أعضاؤه من خلاف فهو إما منطرح على ظهره ، او منكبا على وجهه لا يقدر على الحركة، فهي طريقة يضمن فيها فرعون الموت بعد العذاب لهذا الشخص الذي أمر بتعذيبه حتى الموت ولما لفرعون من ذكر كثير في القرآن الكريم فقد ورد ذكره في خمس وسبعين آية من الآيات الكريمات ، وكلها خطاب فيه ذكر تجبره وتكبره ، فقد آثرت أن ادرسه من خلال تحليل شخصية فرعون في القرآن الكريم وموازنة هذا مع الطريقة التي استمد فيها الروائيون هذه الشخصية ؛ ليفيدوا منها في رواياتهم ، وقد أخذت مثالا لذلك روايات نجيب محفوظ الفرعونية الثلاث (كفاح طيبة)، (وعبث الأقدار)، (ورادوبيس) . من خلال تقنية (القناع) في الادب التي عمد إليها الشعراء المحدثون ليستخدموا أبطالاً أو رموزاً تراثية واسطورية خالدة فيتحدثون بصوتهم من خلالها لا بصوت هؤلاء بحيث تبدو لنا (أنا) المؤلف واضحة ظاهرة.

ففي (القناع) دلالة على شخصية المتكلم أو على شخصية الراوي في العمل الأدبي ، ويكون في اغلب الاحيان هو المؤلف نفسه ، والأساس النفسي لهذا المفهوم أن المؤلف يختار شخصية يستمدها من الماضي فيظهرها بشكل أوضح واعمق وأشمل(١٤) . فذكرتُ شخصية فرعون في القرآن لتكون قاعدة نقيس عليها الشخصية التي اظهرها لنا نجيب محفوظ . مطبقا الشرط الذي وضعه النقاد ليكون القناع مقبولا في الأدب فأهم " شرط في تقنية القناع الجديد ، وهو أن لايتطابق مع صوت القناع الأول ، وان يكون أقوى ، وأشمل محملا بأفكار ورؤى وتجليات وتطلعات جديدة ومعاصرة ، يهدف إليها الشاعر ، ويعبر عنها من خلال قناعه الجديد " (١٥) . وبذلك يعبر الأديب عن تجربته بحيث يسحبها على الواقع المعاصر ويعالج من خلالها ما يعرضه من أفكار وأحلام ورؤى (١٦).

وقد كان فرعون بالنسبة لقومه أسطورة رفضوا أن يصدقوا أنها قد تمس بأية حال من الأحوال ؛ لذا لم يصدقوا أنه قد يموت أو أن يمس بسوء ، فعندما جاء موعد عذابه خرج وراء النبي وأتباعه ليقتلهم فكان أن " تتام آخر جنود فرعون في البحر ، وخرج آخر بني إسرائيل ، أُمر البحر فانصفق عليهم ، فقالت بنو إسرائيل : ما مات فرعون ، وما كان ليموت أبداً ، فسمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام ، قال : فرمى به على الساحل ، كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل "(١٧).

وكان الناس ينظرون إليه كما لو كان أكثر من إنسان عادي ، وكان هو نفسه يعتقد أن ذلك الأمر شيء صحيح لاريب فيه ، فهو أحد الآلهة الأرباب ، بل هو أقرب من غيره الى نفوس الناس ؛ لكونه قريبا منهم فهو سريع الإجابة لطلباتهم ، وما يريدون إيصاله له . وغالبا ما يرسمون له صورة وهو

جالس على فخذ الرب يدلل كما يدلل الأب ابنه ؛ لذا بذلوا في سبيل فرعون كل عزيز لديهم ، وقدموا له أنواع الضحايا فاذا صعد الى السماء لاحقا بإخوته الآلهة شيدوا له معبداً عظيماً لإحياء ذكره على الأرض ، ويخصص لهذا المعبد جماعة من الكهنة يسلخون حياتهم في عبادته والتغني بمناقبة ، وقد فرق المصريون بين فرعون والآلهة الأخرى ، فالأرباب مثل (آمون) ، و(بتاح) تدعى الآلهة العظام ، وأما فرعون فيدعى (الإله الطيب) (١٨).

ويتبع كون شخصية فرعون أسطورية أنه كان يأمر بأشياء لا تخطر على بال بشر فيعمل من تحت أمرته بجعل الخيال حقيقة منفذة ؛ لإيمانهم المطلق بعظمة هذا الشخص وألوهيته ، فقد قال لأشراف قومه عندما بعث الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري " (١٩) ، فتعبدون ، وتصدّقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله رباً غيري ، ومعبوداً سواي (فأوقد لي ياهامان على الطين)(٢٠) ، فأعمل لي آجرّاً فاجعل لي صرحاً لعلي أذهب في السماء ، فأنظر الى إله موسى ، فلما بني له الصرح ، أرتقى فوقه ، فأمر بنشّابة فرمى بها نحو السماء ، فردّت إليه وهي متلطخة دماً ، فقال قد قتلت إله موسى . ويقال إنه أول من طبخ الآجر وبنى به. فقد حقق له أتباعه انجازاً معماريا بأن جعلوا الطين آجراً للبناء ثم رتبوه بشكل هندسي هو شكل الصرح ؛ ليرتقي عليه مرتفعا الى أماكن شاهقة . وفي هذا دلالة على عظمة الصرح وابداع صنعه وقوته ، ففرعون لم يرتقِ إليه وحده بدليل أنه أمر بنشابه .مما يدل على ان هناك من صعد معه ، وهو مدجج بالسلاح ، وهناك من رافقه ، وهو شخص أعزل ، فلا بد أن يرافقه دائما أقرب وزرائه ، أو أخلص مستشاريه ، فهذا يعني أنه قد أعتلى هذا الصرح على الأقل ثلاثة أشخاص.

وقد أثرت عوامل كثيرة في تكوين شخصية فرعون على هذا النحو ، منها الوراثة ، فهو يطغى ويتكبر كونه سليل الآلهة ، ثم البيئة المحيطة به ،فأوامره منفذة بلا جدال ، ورغباته لاترد ، ثم إن لفرعون إرادة لايمكن لأحد أن يقف بوجهها ،وأخيراً علمه بكل ما حوله من أمور . وحتى الأمور التي لايعلمها ، فهو يستعلم عنها من الكهنة ، فهم يمنحونه الأسباب التي تسوغ له أن يفعل ما يشاء برعيته ، فيقتل بعضهم ، ويستخدم بعضهم الآخر عبيداً ، ويجعل من غيرهم ملوكا وسادة ولذا تجبر وتكبر ؛ لأنه يجد أن ما يقول يحول الى فعل بأسرع مما ينطق به . من ذلك أنه أمر بتجيش الجيش في مدة يسيرة لا تزيد على مدة ذبح شاه وطبخها ، والفراغ من أكلها . لما خرج موسى ببني إسرائيل ، بلغ ذلك فرعون ، فقال : لاتتبعوهم حتى يصيح الديك ، فلم يصح ديك ليلتئذٍ حتى أصبحوا ، فدعا بشاة ، فذبحت ، ثم قال : لاأفرغ من كبدها حتى يجمع إليّ ستمائة ألف من القبط ، فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ، ثم سار (٢١).

وقد كان آل فرعون سبباً في ظلم فرعون الناس وإهلاكهم ؛ إذ إنهم كانوا من يدفعه الى ذلك ، ويسوغون له أفعاله ، وقد سام آل فرعون بني إسرائيل سوء العذاب ، وفعلوا بقوة فرعون وبأمره لمباشرتهم ذلك بأنفسهم ، فبين سبحانه وتعالى أن كل من باشر قتل نفس ، أو تعذيب حيّ بنفسه ، وان كان

عن أمر غيره ، ففاعله المتولي ذلك هو المستحق إضافة ذلك إليه ، وإن كان الآمر قاهراً الفاعل المأمور بـذلك . سلطاناً كان الآمر أو لصاً خارجا ، أو متغلباً فاجراً ، كما أضاف جل ثناؤه ذبح أبناء بني إسرائيل ، واستحياء نسائهم أي آل فرعون دون فرعون (٢٢) . ولما كان آل فرعون سبب تجبره وقوته ، وكونه بهذا الشكل دعا سيدنا موسى عليه السلام قائلا : "ياربّ إن عبدك هذا قد علا في الأرض ، وعتا في الأرض ، وبغى عليّ ، وعلا عليك ، وعالى بقومه ، ربّ خذ عبدك بعقوبة تجلها له ولقومه نقمة ، وتجعلها لقومي عظة ، ولمن بعدي آية في الأمم الباقية ، فبعث الله عليهم الطوفان ، وهو الماء ، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها في بعض ، فامتلأت بيوت القبط ماء ، حتى قاموا في الماء الى تراقيهم ، من حبس منهم غرق ، ولم يدخل في بيوت بني إسرائيل قطرة "(٢٣) . ولهذا كانت العقوبة له ولقومه ، وليست له وحده ؛ لأنهم هم من جعله فرعوناً عاتياً بعبادتهم له وتأليههم إياه.

وبناء على ما سبق نجد أن شخصية فرعون في القرآن الكريم شخصية عاتية متجبرة ، يأمر صاحبها بكل أمر صعب لا يمكن تحقيقه إلاّ بشق الانفس ، ومع ذلك نجد أصحابه يجتهدون في تحقيق أوامره.

ومن الصفات الأخرى التي ذكرها القرآن مشاورته أصحابه في حال حزبه أمر كالحلم الذي راوده فقض مضجعه ، ثم فسره له الكهنة والعرافون ، وضرب القرآن صفحاً عن ذكر صفات فرعون الجسدية وملامحه الخَلْقية ، بل صوره لنا بصورة كلية كما رآه من عاصره من الناس ، فلم يتعرفوا الى داخل نفسه ، وعلاقاته مع الآخرين كالزوجة والأولاد والاحفاد وغيرهم ، لأنه بنظر الناس كان إلهاً ولم يكن من البشر. وصدق هو نفسه ذلك فكان عاتياً متكبراً في الأرض ، تجبر على الناس واستعبدهم.

مفهوم الشخصية:

تعد الشخصية عنصراً من عناصر السرد القصصي ؛ لأن المضمون يتمحور حولها ، لكونها الأساس الذي ينبني عليه حديث الرواية " فالحديث هو تصوير الشخصية وهي تعمل فالروائي يعرض الشخصية من خلال التفاعل مع الأحداث ومدى التأثير السلبي والايجابي الذي تظهر الشخصية عليه.

ولابد من الاشارة الى أن لكل شخص منا وجهين لشخصيته أو أكثر تبدو كل واحدة منها في ميدان أو مجال ، فالرجل قد يكون أباً أو عاشقاً أو موظفاً أو ابنا أو أي نمط آخر ، وقد يكون في مجال اخر سيدا آمراً ناهيا وفي مجال ثالث مخذولا مدحورا يرجو رحمة من يذله وأحيانا يظهر الشخص أضعف جوانبه لمن يحبهم ، مظهراً أشدها صلابة لأعدائه ؛ لذلك كان اهتمام الروائيين منصبا على إظهار الجانب الخاص من الشخصيات ، بعد النفاذ الى اعماقها ، وتسليط الضوء على زواياها الخفية ، وحتى نفهم الشخصية لابد لها من أن تقنعنا بوجودها وتأثيرها في أحداث الرواية . ولابد بعد هذا من الاشارة الى أن شخصية (فرعون) شخصية حقيقية ليست متخيلة ،وان حدود هذه الشخصية كانت مؤثرة بشكل كبير في تحريك أحداث الرواية الى

مسارات قد تبدو متوقعة في بعض الأحيان ؛ لأن القاريء يمتلك مرجعية تاريخية عنها ؛ واستطاع الروائي ان يركز اهتمام القاريء بعد أن أدرك فهمه للشخصية ، يسوق أفكاره وقضاياه العامة والفكرية في الحقبة التي عاش فيها لا الحقبة التي عاشتها شخصية فرعون ، وبذلك قد تبدو هذه الأفكار والقضايا منفصلة عن المجتمع الذي عاشت فيه شخصية فرعون.

وقد صورت شخصية فرعون بأسلوب استبطاني استطاع الروائي من خلاله الولوج الى العالم الداخلي للشخصية الروائية ، في تصوير أفكارها ، وما يتصارع من عواطفها وانفعالاتها ، وأحيانا يصور رؤاها وأحلامها في عفوية . بل إن لكل ما يمس هذه الشخصية له تأثير في تكوينها وتحديد ملامحها ولعل أوضح مثال على ذلك لقب الفرعون ، فالاسماء والألقاب في الرواية يجب أن تكون " متناسبة ومنسجمة بحيث تحقق للنص مقرؤيته ، وللشخصية احتماليتها ووجودها " (٢٥) . وقد لاحظنا آنفاً معنى لقب فرعون وأثره في تكوين هذه الشخصية التي حظيت باهتمام كبير في التاريخ من خلال دراسة تاريخ مصر القديمة.

وتكون دراسة الشخصية كذلك من "تكامل الصفات الجسدية والخلقية المميزة لفرد ما ، بما في ذلك بناؤه الجسدي ، وسلوكه واهتماماته ، ومواقفه وقدراته ، وكفاءته ، أي إنها كلية الشخص كما يراها الأخرون " (٢٦).

شخصية فرعون في الأدب العربي:

يمكن دراسة شخصية فرعون في الأدب العربي ونظرة الأدباء إليه من خلال روايات نجيب محفوظ الفرعونية . وسأدرس شخصيته من جوانب مختلفة اهتم الروائي بإظهارها . فقد يلفت نظر الباحث أن نجيب محفوظ اهتم بجوانب مهمة أراد أن يبرزها من خلال الرواية توضح نظرة القارئ الى فرعون ، وهذه الجوانب هي:

أولاً : بناؤه الجسدي:

الجسد أول ما يثير اهتمام الناس بعضهم ببعض ، وللجسد لغة يمكن للآخر أن يفهمها إذا ما إهتم بشخص ما ، وحاول أن يفهم حركاته وسكناته ، فقد وصف لنا نجيب محفوظ الفرعون من خلال رؤية امرأة عاشقة لجلاله وجماله قائلاً : "وكانت رأته قبل ذلك في يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل ، وكان يقف في عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال ، مرسلاً بناظريه الى الافق البعيد ، وقد تمنت يوم ذاك كما تمنت اليوم لو عطف إليها عينيه "(٢٧) . فلابد لمن كان رباً معبودا أن يكون على قدركبير من الجمال والكمال حتى يفوز بقلوب عبيده فيتبعوه راضين به حاكما لهم يسوس أمورهم بحكمته ومعرفته المستمدة من الآلهة . ويصفه لنا رجلا مكتمل الرجولة والهيئة قائلاً : "وكانت جلسته هادئة وديعة ، فكان يسلم ظهره الى وسادة محشوة بريش النعام ، ويتكيء بمرفقه على نمرقة ذات غطاء من الحرير المنمنم بالذهب ، وقد تجلت آي عظمته في

جبهته العالية ونظرته الرفيعة ، وتبدت قوته الخارقـــــــة في صدره الواسع وساعديه المفتولين وأنفه الأشم ، فأحاطت به مهابه من سن الأربعين ، وهالة من مجد الفراعنة " (٢٨).

فالروائي جعل الفرعون يتحلى بكل الصفات الجســدية المثالية التي تجعل منه انموذجا انســانياً يبــهر الانظار.

ثانيا : سلوكه:

يمكن من خلال النظر الى سلوك فرعون ان نفهم شخصية فرعون بشــكل أوضح ، وقــد كان الروائي يتدرج بالصفات السلوكية من القوة والانفعال الى الاستسلام . يذكر محفوظ أن فرعون يميل الى التمسك بالاسرة والارتباط بها ، قال : "كان فرعون يحب تلك الجلسات العائلية التي تعفيه من أثقال الرسميات ، وترفع عن كاهله أعباء التقاليد ، فيغدو فيها أباً رقيقاً وصديقاً وداوداً ، ويخلص وصحبه الى النجوى والحديث ، ويطرقــون تافه المواضيع وهامها ، فتلوك ألسنتهم التفاهات وتبرم الامور وتقرر المصائر .... " (٢٩).

وقد يتصف فرعون بصفات أخرى منها شعوره بالملل لكونه بشراً مثل سائر البشر يفرح ويحزن ويتألم على الرغم من مظاهر الألوهية التي حباها له شعبه وأتباعه وحاشيته ، قــال الروائي : "ولكن الملك كان في تلك الأيام يشكو من مـــــلل أوقات الفرغ على قصـــــرها وندرتها ، فلما علم أنه قد آن لـــــه أن يستريح وأن يلهو ران على قلبه السأم ونظر الى صحبه ، وقد قال له خومينى : هل أملأ لمولاي كأساً من الشــراب ؟ فهز فرعون رأسه وقال : شربت اليوم وشربت بالأمس : فقال أربو : هل ندعو العازفات يامولاي ؟

فقال بملل : إني استمع الى موسيقا هن صباح مساء.

فقال ميرابو : ما رأي مولاي في الخروج الى الصيد ؟

فقال الملك بنفس اللهجة : شبعت من صيد البر والبحر - إذا فهل من سير بين الأشجار والأزهار ؟

فقال : وهل في الوادي مشهد جميل لم أره ؟

وساءت شــكوى الملك خلصاءه وتكدرت نفوســهم ، إلا الأمير هورداديف فإنه كان يدخر لوالده مفاجأة سارة لاعهد له بها ، فقال:

-أبي الملك ، إني أستطيع أن أقدم بين يديـــــــــــك لو تشاء ساحراً عجيباً يعلم الغيب ويميت ويحيي ..."(٣٠).

فالرعية تحاول أن تزيح عن نفسه الملل والآلام النفسية المريرة ، وفرعون يدرك تماما اهمية الشعب له ؛ ولهذا فهو يقدمه على أي شيء آخرونجد المقولة التي أطلقها الفرعون خوفو وهي بمثابة شعار رفعه محفوظ في روايته عبث الاقدار أراد أن يعيه كل قاريء لهذه الرواية قال فرعون : (من الذي ينبغي أن تبذل حــياته لصاحبه ؟ الشعب لفرعون أم فرعون للشعب !) (٣١).

ومما يمكن أن نستخلصه من سلوك فرعون في الرواية . عمق إيمانه وصدق اعتقاده بما يؤمن

قال الروائي : "وكان سيكنزع يدرك الهول الذي ينتظره وجيشه ، ولكنه كان رجلا باسلاً عظيم الايمان ، فلم يتردد لحظة ونظر الى السماء ، قال بصوت صافي النبرات : (أيها الرب آمون لاتنس أبناءك المخلصين) . ثم أصدر أمره الى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم ، واندفع أمامها ليلقي عدوه " (٣٢).

ونجد الروائي في رواية رادوبيس قد أجمل خصائص سلوك فرعون بشكل متكرر؛ لان شخصية فرعون في هذه الرواية شخصية شابة متمردة لاتعرف الخوف أو التراجع . موضحا في مشهد ممسرح فورة غضب فرعون في حادث نغص عليه فرحته بعيد النيل عندما هتف بعض أفراد الشعب محيين كبير الكهنة بدلا من أن يحيوا فرعون قال : "وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك في عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فهرع كالريح الهوجاء الى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح في عينيها الصافيتين آي السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك وشاهدن الغضب يصرخ في وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن مسرعات لايلوين على شيء ... " (٣٣).

والحق أن الروائي صور فرعون في صورة ماكان له ان يظهر فيها سواء أكان ذلك أمام الملكة أو أمام الخادمات ؛ لان لفرعون هيبة منحها له الشعب كونه معبوداً وملكاً لمصر القديمة قبل أن يكون انساناً من لحم ودم ، بل ان الروائي غالباً ما كرر لنا ذلك هذه الحالة السيئة عنده وهي شدة غضبه وفورة شبابه عبر الرواية من أولها حتى نهايتها . وهذا السلوك هو الذي دفع بفرعون الى حافة الهاوية ومن ثم موته وهو في ذروة شبابه وعنفوان رجولته مقتولا بسهم غادر قال :"ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب سوفخاتب ، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة ، ويخسروا قضيتهم الى الأبد ، فامتدت يي الى قوسها ، ووضعت سهماً في كبده ، وسددته الى فرعون وأطلقته ،فانطلق السهم من وسط الجمع ، واستقر في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء "(٣٤).

ويؤكد الروائي هذا المعنى فيما بعد عندما وصف لنا المشهد نقل فرعون بأمره الى منزل حبيبته رادوبيس التي أراد أن تكون لحظاته الأخيرة في أحضانها قائلا : "وكان نائماً في تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذه في الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبت فيه نسمة حياة رقيقة ، ولاح في عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة ، ولم تكن تراه الإ هائجاً مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجن وهي تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل . وألقت نظرة نارية على السهم الذي أحدث كل هذا ، وقالت بتألم - : كيف تركوه في صدرك !؟ ... هل استدعي الطبيب ؟! "(٣٥).

وقد أدركت حاشية الملك غضبه ويمكننا ان نلحظ هذا الإدراك من خلال كلام بعضهم على هذا الأمر قال الروائي :" وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فخفق قلباهما . وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك ؛ لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر ،

وبمعالجة مشـــكلة الأراضي بـــمنتهى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع الغضب الملك الى الانضمام الى رأيه ، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابـــد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا ... وجعل الرجلان المخلصان ينظران الى وجه مولاهمـــــا ، يرجوان ، ويكابدان قلقاً أليماً ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبي الهول ... وأمرها بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقـــال : يحـــق لي اليوم أن أغضب وأتألم . وفهم الرجلان مايعني ، ورن في أذنيهما الهتاف الجريء مرة أخرى . فرفع ســـوفخاتب يديه تألماً وإشفاقـــاً ، وقال بصوت متهدج : تعالى مولاي عن دواعي الألم والغضب ! " (٣٦).

بل ان قاريء الرواية يدرك أن غضب الملك سجية من سجاياه لاتفارقـــه أبـــدا قـــال الروائي : "ووجم الرئيس أسفا وحزناً ، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضا ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته ، وقال آسفاً : إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولايستطيع شيئا . فقال سوفخاتب في حزن.

ليس لديه يامولاي إلا قوة الشرطة ، وهي لاتجدي في مقاومة جموع غفيرة ، فقال الملك بغضب:

وليس لدى الا الانتظار على مضض ، لقد أدميت وحق الرب كبريائي ! "(٣٧).

وهنا يبدو لنا أن غضب الملك عادة في عادته وسجية من سجاياه.

والى جانب الغضب هناك سلوك آخر أراد الروائي أن يبديه لنا محـــاولا لفت انتبـــاهنا الى انه لايجوز لفرعون ان تتصف به ،وهو سيطرة رغباتـــــه عليه الى حد أنها لم تترك له مجالاً ليكون ذلك الملك الذي يتمناه الناس قال : "فقال الملك الشاب بجدة:

- أريد أن أشيد قصوراً ومقابر ، وأن اتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف في سبيل رغباتي إلا أن نصف أراضي الملكة في أيدي أولئك الكهنة ... أيجوز أن تعذبني رغباتي كالفقراء ؟ الا سحقا لهذه الحكمة الفارغة ، أو تعلمين ماذا حدث اليوم ، لقد هتف منهم في أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب ... أرايت أيتها الملكة إنهم يتحدون فرعون عيناً لعين "(٣٨).

فكلام فرعون يظهر لنا أنه شخص يريد أن يفعل ما يريد وكأن مجرد وضع التاج فوق رأســـه يخوله ان يكون سيداً مطلقاً على رؤوس العبيد ، ناسياً أو متناسياً أن السيادة والملك ليست سوى مسؤولية خطيرة الشـــأن يكلف بها المرء ؛ ليكون موضع سؤال عند كل من تمسه هذه المسؤولية من قريب ، أو من بعيد.

وقد أراد الروائي أن يوضح هذا الامر لنا في ان من يحيط بفرعون يدرك أنه تابع لأهوائه وهي متسلطة عليه متحكمة فيه قال : "فقعد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشـــدة : ليس فرعون بالإنســـان الذي يرغب في شيء ، ويعز عليه ، وهو إذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به " (٣٩). بل إن فرعـــــــون كان فريسة أهوائه وشهواته وقد أدركت الملكة ذلك ، قال الروائي : "وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأســـاة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى في الهاوية ،ويذهب فريسة لهواه الجامح ، ويهرع الى تلك المرأة - التي شاد بحسنها كل لسان - لايلوي على شيء "(٤٠) . وقوله : "ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلوبـــاً

غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهور الملك ،وهاهو ذا ختوم حتب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بينة :انه لايجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة ، ويؤمن بقولـــــــــه المئون من صفوة الحكماء " .(٤١).

بل إنه يكره من يصرح بهذا الأمر أمامه قال الروائي على لسان الملكة

- يحزنني وحق الرب ، وانت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية . وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم الى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر . وخشيت الملكة أن يفســد غضبــه عليها الغرض الذي جاءت من أجله ،فندمت على قولها ، وقالت له برجاء : أنت الذي سقتني الى هذا الحديث أيها الأخ ، وما لهذا جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أني قصدت إليك لأحدثك في شؤون هامة تمس سياســة المملكة اتي نجلس على عرشها سوياً .

فكظم حنقه ، وسألها بلهجة كالهادئة : ماحديثك أيتها الملكة ؟ " (٤٢). فهو غاضب ويكتم غضبه ليحدث أقرب الناس إليه زوجه وشريكته على العرش.

ومن صفاتـــــه الأخرى التي تتحكم بسلوكه عناده واعتداده بما يرى على الرغم من رأي الآخرين الذي يغاير رأيه ، وان كان الصواب في رأيهم وهو يعرف ذلك ، قال الروائي واصفاً حال نيتوقــريس وهي تتكلم مع الملك :" فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فيئست من إقناعه ، وقالت بهدوء وحزم : ســأكون الى جانبك . ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها وقال بتوسل:

- نيتوقريس ، إن الشعب يريدك ، وحسناً أراد ، فأنت جديرة بحكمه فابقــي له . وإياك وأن تظهري الى جانبي فيقولوا إن الملك يحتمي بزوجه أمام الشعب.

وكيف أتخلى عنك ؟

- أفعلي هذا من أجلي ، ولاتقدمي على عمل يفقدني شرفي الى الأبد "(٤٣).

ولكن لهذا الأمر كله نهاية عجيبة فالملك يدرك أخيرا العيوب التي تعتري شخصيته قــال الروائي على لسان الملك : " ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه ، وازاح الستار المسدول على بابها ودخلا معا ً الى الحجرة الفاخرة . وكان يطالع الداخل محراب منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقين ، فاتجه الملكان الى تمثالي والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين ، وقــال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر الى تمثال والديه:

ترى ما رأيكما فيّ ؟!

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعاده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبــت عينيه على وجه أبيه ، وقال - :لقد أورثــتني ملكــاً عظيماً ومجداً اثيلاً ، فماذا صنعت بهما ؟لم يكد يمضي عام على توليت حتى شارفت الدمار ،وا أسفاه لقد أذللت عرشي موطئاً للنعال ، وجعلت اســمي مضغة الأفواه ، واكتسبت لنفسي اسماً جديداً لم يطلق على فرعون من قبل ، هو (الملك العابث) " (٤٤).

ولابد لنا لنفهم شخصية الملك ان نفهم مواقفه إزاء الامور ومن ذلك نظرته الى الهزيمـــــة على سبيل المثال التي تبدو في حواره مع عشيقته رادوبيس قال : " - أنت لاتدرين من الأمر شيئاً يا رادوبيس ، لقـد قـلت كلمتي فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدونني ، فالتسـليم لهم هزيمة لا أرضاها ، وأتمنى دونها الموت . أنت لا تدرين معنى الهزيمة في نفسي ، إنه الموت . ولو فازوا علي بنيل بغيهم لوجدتني وحيداً ، غريباً ، حزيناً ، أسيفاً لاقدرة لي على الحياة ولاالحب " (٤٥).

ومن الأمور التي يشير إليها الروائي محاولا من خلالها ابراز شخصية فرعون التي عمل على رفضها في روايته (رادوبيس) اضافه الى نظرته الى الخسارة والتراجع رأي الفرعون بنفسه وبأنه غير مقتنع بـما يجب ان يرفض عليه من اعباء لكونه فرعوناً ، فبعد أن تعرف برادوبيس الغانية أراد دائما أن يكون معها وهو يصف حالة فراقها لانشغاله بمهام الملك لكونه فرعون مصر المسؤول عنها قال : "رأيت الاجتماع ثقـيلاً مرهقـاً ، وأعياني تركيز فكري ، واسـتخفني الجزع ، وعرض علي الرجل مراسـيم كثيرة فأمضيت عدداً يسـيراً ، وأصغيت إليه بعقل مشتت ، ثم ضقت بكل شـيء ذرعاً ، فقـلت له الى الغد ، ولم أكن أفكر في العودة ، ولكني رغبت في أن أخلو بنفسي للحديث والمناجاة ، فلما خلوت الى نفسي وجدت الوحدة ثقـيلة ، والليل موحشـاً لا يحتمل ، هنالك لمت نفسي قـائلاً : لماذا أصبـر الى الغد ؟ وليس من عادتي أن أقـاوم عاطفة ، فما عتمت أن وجدتني ها هنا بين يديك ... " (٤٦).

قال (ليس من عادتي أن أقاوم عاطفة) هل هذه صفة ملك ، بل فرعون في دولة هي من أعظم العالم القديم تطوراً وحضارة وعمراناً ، فمن يتطلع للنظر افي تاريخ مصر القـديمة يجدها وقـد وصلت مجداً عظيماً في (الطب ، والفلك ، والملاحة ، والبناء و العمران) وحتى الفلسفة فقـد اعطى علماء مصر كل شـيء معنى آخر اختلفوا به عن غيرهم ، وامتازوا به من غيرهم ، فهل سـيكون شـعب هذه حـال يتملك عليهم فرعون لايدرك خطورة غضبه وعظم مسؤولياته ، وقد قدم لنا نجيب محفوظ صورة أخرى لموقف فرعون من الحياة من خلال موقفين متناقضين ذكرهما في روايته (كفاح طيبة) ، كان الأول مشهداً من حياته مع أسـرته والوجه الحقيقـي الذي يظهره معهم ، قال واصفاً حاله مع أسرته وهو ؛ يودعهم ذاهباً الى قتال الأعداء ذلك القتال الضاري الذي لا أمل بعده في العودة الى الوطن والى الأهل بسبب كثرة عدد العدو ، وقوتهم ،وشراستهم ، وتخليهم عن الرحمة والشفقة ، وقد حصل فعلاً ماتوقعه الملك فسقط قتيلاً وهو يدافع عن وطنه وأهله قال الروائي على لسـان الملك مخاطباً أولاده واحفاده : " - أتبكين ياأحوتبي ... انظري الى شجاعة أمنا توتيشيري..

ثم نظر الى أحمس وكان يكلف به كلفاً شديداً ، وكان الغلام صورة صادقة من جده ، فجذبه إليه وقبـله وسأله مبتسما:

- من العدو الذي يجب أن نحذره يا أحمس ؟

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول : اليأس.

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى ، ثم قام واقفاً برقــة : " هلموا نتعانق ..." ثم عانقــهم جميعاً مبــتدئاً بتوتيشيري وزوجه أحوتبي وستكيموس زوج ابنه ثم أحمس ونيفر تاري : ثم انطلق نحو كاموس ، وكان واقفاً في جمود واستسلام فمد له الملك يده فشد عليها بقوة ، ثم انحنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت:

"فلتصحبك السلامة يأبتاه "ولوح لهم الملك بيده ، وبرح المكان بقدمين ثابتتين ، وقــد تجلى على وجهه العزم واليأس " (٤٧).

فقد استمد من حب أسرته ووفائها قوته التي سيحــارب بــها الاعداء محــاولاً الانتصار على من يريد لأرضه ووطنه الشر.

أما الموقف الآخر فهو قرار فرعون الخطير بالهجوم على أسوار طيبة بعد أن وضع العدو الشرس عليها نساء وأطفال ، ليكونوا دروعاً بشرية يحتمي وجنوده بــها من هجوم فرعون ورجاله عليه ، قــال الروائي على لسان فرعون وقد طلب منه رجاله ان ينظر ماذا علق الاعداء على الأسوار قال :" آذنتني عيوني بــالعمل الدنيء الوحشي ، ولكن كيف ترضى أن نساق الى أشراك أبو فيس ونحن به عالمون ؟...

-هل يجوز ان نكف عن الكفاح في سبيل طيبة إشفاقاً من أن تؤذي نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا ؟ فقال الملك أحمس بمرارة:

-أترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟

فقال القائد بحــماس وثقــة - : نعم يامولاي ، إنهن قربــان الكفاح ، مثلهن مثل جنوداً البواســل الذين يتساقطون في كل حين ، بل مثلهن مثل مليكنا الشهيد سيكننرع ... فالتفت الملك الى القواد وقال بعزم:

-إيها القواد ، اذهبوا الى جنودكم وقولوا لهم إن مليكهم الذي فقد في سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه في سبيلها ، يأمركم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل ... " (٤٨).

صورتان متناقــضتان يضعها اما منا الروائي الاولى: للعطف والرقــة التي يخفيهما الملك في صدره ، والثانية للقسوة التي يجب ان يدوس فيها مشاعره واحاسســيه في سبــيل تحقــيق النصر للوطن، والانتصار في المعركة مهما كانت النتائج.

وللوقوف على جوانب أخرى مهمة من شخصية فرعون لابد لنا من أن ننظر الى قــدراته وما يمكنه ان يؤديه في الحياة لنفسه أو لشخصه، وهذه هي الصورة الثالثة التي قدم لنا فيها نجيب محفوظ شخصية فرعون ففي (رادوبيس) كانت شخصيته متهورة عابثة متكبرة على شعبها ، وأهلها وحــتى على اقــرب الناس إليها . اما في (كفاح طيبة) فكانت شخصية ملتزمة جعلت كل حياتها في خدمة الشعب ،وقضية العادلة في التحرر من الاستعمار ، لنجده يظهر لنا شخصية ثالثة في (عبث الأقــدار) ففرعون في هذه الرواية كان شــخصية مدورة بدأت في أول الأمر شخصية ملكية محاطة بأتبــاعه ووزرائه وأفراد اســرته من الأمراء الذين

يريدون أن يرضوه بشتى السبل (٤٩) . ينظرون إليه نظرة توحد مع الشعب قال وزيره خوميني:

-مولاي صاحب الجلالة الربانية ! لماذا تفرقون بين ذاتكم العالية ، وبين شعب مصر وأنتم منه كالرأس والروح من الجسد "(٥٠).

فهو يرى أن موت شعبه في سبيل بناء هرمه سيكون تضحية كبيرة منه لمليكه . وهو يعي تماماً مكانته ؛ لكونه ملك دولة عظيمة قال : "فابتسم الملك ارتياحاً ، وعاد بخطى واسعة الى الأريكة الذهبية وجلس فجلس القوم ، ولم يكن الأمير رعخعوف ولي العهد بمرتاح الى وساوس والده فقال له:

- لماذا تكدرون صفوكم يامولاي بأمثال هذه الوساوس ؟ لقد توليت الحكم بمشيئة الآلهة لا بإدارة إنسان ، ولك أن تحكم الناس كيف تشاء لاتسأل عما تفعل وهم يسألون!

فقال خوفو :

- أيها الأمير ، إن أباك إذا تفاخرت الملوك يقول : أنا فرعون مصر " ثم تنهد بصوت مسموع وقال وكأنه يحدث نفسه:

-إن كلام رعخعوف حري بأن يوجه الى حاكم ضعيف لا الى خوفو الجبارخوفو فرعون مصر ... وما مصر الإ عمل عظيم لاتقام لبناته الا على تضحيات الأفراد ، وما قيمته حياة الفرد ؟ إنها لاتساوي دمعة جافة لمن ينظر الى المستقبل البعيد والعمل المجيد ... لهذا أقسو دون تردد ، وأضرب بيد من حديد ، وأسوق مئات الألوف الى الشدائد لا لبلادة طبع أو تحكم أثرة ، وكأن عيني تنفذان خلل سجف الأفق فتطلعان على مجد هذا الوطن المنتظر . لقد اتهمتني الملكة مرة بالقسوة والظلم . كلا ، ما خوفو الا حكيم بعيد النظر ، يرتدي جلد نمر مفترس ، ويخفق في صدره قلب ملاك كريم " (٥١).

فالملك يظهر لمن أمامه شخص قاسي القلب متجبر يسوق آلاف العمال الى الموت ليبني مرقده الأخير في هرمه العظيم . وقد استعمل الروائي قوله تعالى في كتابه العزيز : (لايسأل عما يفعل وهم يسألون)(٥٢) .بعد أن غير اتجاه الضمير من الغائب الى الحاضر فصارت الجملة (لاتسأل عما تفعل) موحياً بهذا الاستعمال للمتلقي أن هذا الملك ليس سوى شخص عاش في زمان غير زمان الفراعنة ، ولو تتبعنا النص لوجدنا قوله بعد ذلك:

(يوجه الى حاكم ضعيف) ، فكأن الصورة قد اتسعت لتشتمل على شخص أراد نجيب محفوظ أن توضح لنا معالم شخصيته في أنه حاكم قوي لدولة قوية ، يزج برعيته في بحار الموت الهائجة اذا كان هذا الأمر يصب في صالح مصر ، ومجدها وعظمتها لايهمه ذلك، ولكنه في الوقت نفسه تذوب نفسه حسرات عليهم حزين يتمنى ضد هذا الأمر.

وبدا فرعون في أول الرواية أنه متمسك بعرشه لايهمه سفك الدماء دفاعاً عنه، فعندما هدد عرشه وجود طفل صغير رضيع سار إليه بنفسه ليقتله دفاعاً عن عرشه قال :" فابتسم فرعون وقال باطمئنان.

-أمامنا طفل رضيع على بعد منا يسير ، فيا أيها القائد أربو أعد حملة من العربات الحربية سأقودها الى أون ، لأشهد بنفسي قتل مخلوق الأقدار الصغير.

فقال خوميني دهشاً : هل يذهب فرعون بذاته ؟ فضحك الملك وقال:

- إذا لم أذهب للدفاع عن عرشي فمتى يحق لي الذهاب ؟(٥٣).

وعلى فرعون واجبات صار حتماً عليه أن يؤديها كما يجب والا سئل عما يفعل، وهذه نظرة أخرى قدمها لنا الروائي لما قال :" أحسنت أيها الكاهن ، فكل مصري يسعى في الحياة لنفسه أو لأسرته ، أما فرعون فينهض بحمل أعباء الملايين ، ويسأله عنها جميعاً أمام الرب ..."(٥٤).

والاعتقاد السائد عند المصريين ان الفراعنة هم الآلهة المعبودة التي لاتحاسب عما تفعل بل هم الذين يحاسبون الناس عما يفعلون . وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز قال مخاطبا سيدنا موسى عليه السلام) اذهب الى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الاعلى) (٥٥) . لهذا صارت الصورة أمامنا واضحة أن الفرعون الذي نقرأ عنه في الرواية هو ليس فرعون الذي حكم مصر قديماً وإنما صورة للملك آخر تمخضت عنه مخيلة نجيب محفوظ.

وتتغير شخصية فرعون كلما تقدمنا في قراءة الرواية فقد غيرته الحوادث التي مرت عليه فصار " يميل الى التشاؤم والتفكير والقراءة ، فكان ربما طلع عليه الفجر وهو جالس في مخدعه يقرأ كتب اللاهوت، وفلسفته قاقمنا وتطورت فكاهته الاولى الى سخرية لاتخلو من سوء الظن والريبة " (٥٦).

كل هذه المشاعر المؤلمة التي تعتري الفرعون كانت تمر به والروائي يشعرنا أن الفرعون كان في اوج عظمته، وقمة مجده، فقد انتهى اليوم بناء هرمه العظيم أعظم أهرام مصر . وكل هذا وهو ليس سعيداً في داخله كما دلنا على ذلك الروائي الذي حضر اذهاننا لكي نفهم سبب تغيره واهتمامه بشعبه بعد ان كان اهتمامه بمجده هو . لهذا نراه فيما بعد وهو منهمك "في تأليف كتاب عظيم يرجو ان يجعل منه للمصريين اكبر مرشد للدين والدنيا ، فلم يبدي جلالته استعداداً للتفكير جدياً في مسألة الحرب "(٥٧).

فالحرب تعني الحركة وتأليف الكتب يحتاج الى الاستقرار ، وهدوء البال ، واحدهما ضد الآخر ويجعلنا الروائي في نهاية الرواية ندرك أن فرعون بشر أحس بانتمائه الى عالم البشر الفاني مبتعداً عن عالم الآلهة الخالد، وان الموت هو نهاية كل واحد من البشر قال في ساعة احتضاره :" الحق أقول لكم إني في هذه الساعة الرهيبة أحس من نفسي قوة عظيمة على السمو على العواطف البشرية ، وأحس بأبوتي للعباد تغلب أبوتي الأبناء ، فأعينوني على قول الحق وفعلته ... والحق إني لا أمجد أبوتي لكم ،ولكني أجد بين يدي من هو أحق بالعرش منكم، ومن توليه للملك حري بأن يصون لكم أخوتكم طاهرة . وهو شاب علت به همته الى القيادة قبل الأوان ، وحققت له شجاعته نصراً عزيزاً للوطن ... وإياكم أن تقولوا كيف يتولى العرش

من ليس يجري في عروقه دم الفراعين ..."(٥٨).

وأخيرا يقدم الروائي قولاً يقوله فرعون وهو في اقرب لحظاته الى الموت أراده أن يكون شـــعاراً لكل من يتولى الملك والحكم قال :" إن فرعون تربة صالحة كأرض مملكته يزدهر فيها العلم النافع ، ولولا جهل الفتوة وعماية الشباب ما قتلت نفوساً بريئة بغير ذنب "(٥٩) .وكانت هذه حكمته الأخيرة التي سطرّها في كتابـــه الذي أهداه الى شعبه، وقال بعد ذلك في اعياء شديد :" تمت رسالة خوفو الى شعبه الحبيب " (٦٠).

من غير ان يلقب نفسه بلقب (ملك) أو (فرعون) فقد انتهى هذا الأمر الآن؛ لانه سيذهب الى عالم آخر لا حاجة فيه الى الالقاب،وقد إختار أن يموت في هدوء بلا خلاف مع أحـــد فكان نصيبـــه ان مات موتة خيم عليها السكون وحفتها الدعة، فقد مالت الملكة عليه لحظة موته " فرأت وجهه وقد اكتسى بنور سماوي " (٦١).

نخلص مما سبق أن نجيب محفوظ قد وســـع حقـــل رؤيته من كل ما هو فردي وذاتي الى نظرة جمعية حياتية اساسها عمق نظرة الفنان في تأمله الحياة، وتوقه الى الوصول الى جوهر الأشياء، مستعملا للوصول الى ذلك انموذجا بشرياً لشخصية هي مثال التكبر والتجبر، والغرور كما قرأنا عنها في القرآن الكريم.

ولماذا شخصية فرعون؟ لأن الشائع الراسخ في اذهان القراء ان فرعون عات متجبر فأراد الروائي ان تكون هذه النقطة هي انطلاقته من فردية فرعون الى ان يتحدث بصوته هو - عبر هذه الشخصية- قائلا إن الدولة العظيمة اساسها الفرعون العظيم، وان الفرعون العظيم لاتكون عظمته الا من خلال تفانيه في حـــب شعبـــه الى الحد الذي ينسى نفسه فيجعلها فداء لشعبه ووطنه، ولو نظرنا الى روايات نجيب محفوظ الفرعونية سنجده ألف (عبث الاقدار) عام ١٩٣٩ . وهي التي حدد فيها ملامح الملك الذي يكون قـــادراً على بـــلوغ المجدعندما يذكره شعبه بأنه واحد من اعظم الملوك،ثم ألف (رادوبيس) عام ١٩٤٣ ، وفيها وصف ملكاً عابثاً كان قدره الموت بيد شعبه ؛ لانه لم يتعظ ممن سبقوه وترك نفسه لأهوائها ، فكان محفوظ يقـــول : هذا هو جزاء من لايكون عادلاً مع شعبه ويراعي مصالحه قبل نزوات نفسه ثم نجده ألف (كفاح طيبة) عام ١٩٤٤ ، وفيها صورة مختلفة عن هاتين الصورتين ففرعون (عبث الأقدار) دافع عن عرشه في حياته بكل قوة وبـــذل لاجله كل غالٍ ونفيس ،وفرعون (رادوبيس) استسلم لقدره راضياً بالموت في سبيل نفســـه ، اما فرعون (كفاح طيبـــة) فهو فرعون بـــدأ جهاده وكفاحه منذ نعومة اظفاره عندما بنى نفسه جسديا وفكرياً لكي يكون مؤهلاً لهذا الأمر الجليل.

وبهذا حقق محفوظ شرط تقنية القناع في ان الشـــخصية الروائية يجب أن تكون اعمق من الشـــخصية الأصلية التي استمد منها الاديب فكرته ،وبهذا يعبر المبدع عن تجربته في الحـــياة ونظرته المبـــدعة الى الامور ساحباً ذلك كله الى أرض الواقع الذي يعيش به المتلقي.

الهوامش

1- النازعات : ١٧.
2- تاج العروس من جواهر القاموس : ٩ / ٣٠٠.
3- الجامع لأحكام القرآن : ١/ ٣٨٣.
4- ينظر المصدر نفسه : ١/٣٨٥.
5- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل : ٣١٤/١.
6- ينظر مصر القديمة ، سليم حسن : ١/١٦٦.
7- مصر القديمة جيمس بيكي ، تر : نجيب محفوظ : ٢٤.
8- تاج العروس : ٩ /٣٠١.
9- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٨ /١٧١.
10- المصدر نفسه : ١ /٢٧٣.
11- المصدر نفسه : ١ /٢٧٢.
12- يوسف : ٤٤.
13- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٩ /٢٣.
14- معجم مصطلحات الادب : مادة القناع ، ولفائدة ينظر القناع في الشعر العربي - دراسة في شعر الرواد ، رعد أحمد علي ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، ١٩٩٢ م والقناع في أدب أبي العلاء المعري ، اسامة عبد الصاحب محسن ، (رسالة ماجستير) الجامعة المستنصرية ، كلية الأداب ، ١٩٩٦ م ، وتقنية القناع في فن مارون عبود القصصي ، غانم وائل أبو شقر ، مطبعة منشورات الينبوع ، طرابلس ، ٢٠٠٤ م.
15- قصيدة القناع في الشعر العربي : ٤٣.
16- المصدر نفسه : ١١.
17- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٩ /٧٦.
18- مصر القديمة ، جميس بيكي : ٢٤ - ٢٥.
19- القصص : ٣٨.
20- القصص: ٣٨.
21- ينظر : البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٢٧٦.
22- المصدر نفسه : ١ / ٢٧٠.
23- المصدر نفسه : ٩ / ٣٨.
24- فن القصة القصيرة : ٣٩.
25- بنية الشكل الروائي : ٧٨.

26- معجم علم النفس : ٨٣.
27- رادوبيس : ٣٩.
28- عبث الأقدار : ١٥.
29- المصدر نفسه : ٦.
30- المصدر نفسه : ١٤.
31- المصدر نفسه : ١٢.
32- كفاح طيبة : ٤٦.
33- رادوبيس :٢٣.
34- المصدر نفسه :٢٢٧.
35- المصدر نفسه :٢٣٤.
36- المصدر نفسه :٢٧.
37- المصدر نفسه :١٧٩.
38- المصدر نفسه :٢٥.
39- المصدر نفسه :٧٣.
40- المصدر نفسه :١٢٤.
41- المصدر نفسه :١٢٥.
42- المصدر نفسه :١٢٨.
43- المصدر نفسه:٢٢٣.
44- المصدر نفسه:٢٢١.
45- المصدر نفسه:١٥٣.
46- المصدر نفسه:٩٦.
47- كفاح طيبة : ٣٥.
48- المصدر نفسه : ١٩٠ - ١٩١.
49- ينظر عبث الأقدار : ٥ وما بعدها.
50- المصدر نفسه: ١٢.
51- المصدر نفسه:١٣.
52- سورة الانبياء : ٢٣.
53- عبث الأقدار : ٢٤.
54- المصدر نفسه: ٤١.
55- سورة النازعات : ١٧ - ٢٤.
56- عبث القدار : ٩٦.

57- المصدر نفسه:١٥٥.

58- المصدر نفسه:٢٥١.

59- المصدر نفسه:.٢٥٦

60- المصدر نفسه:٢٥٦.

61- المصدر نفسه:٢٥٧.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت - الدار البيضاء /،ط١ ، ١٩٩٠.
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، مطبعة الكويت ، الكويت ،بلا .ت.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، بلا . ت.
- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب المصرية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط ٢، ١٣٥٣ - ١٩٣٥.
- رادوبيس ،نجيب محفوظ ، دار مصر للطباعة ، ط ٣ ، ١٩٥٨.
- فن القصة القصيرة ، د . رشاد رشدي ، دار العودة ، بيروت - لبنان ، ط ٢ ، ١٩٧٥.
- قصيدة القناع في الشعر العربي الحديث ، دراسة ومختارات ،محمد جميل شلش ، الموسوعة الصغيرة (٤٥٦) ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٢٨هـ) ، المطبعة الكبرى الاميرية ، مصر ، ط ٢ ، ١٣١٨ هـ.
- كفاح طيبة ، نجيب محفوظ ، دار مصر للطباعة ، ط ٣ ، ١٩٥٧.
- مصر القديمة ، جميس بيكي ، تر : نجيب محفوظ ، دار مصر للطباعة ، بلا .ت.
- مصر القديمة ، سليم حسن ، مطبعة الكوثر ، مصر ، بلا .ت.
- معجم علم النفس ، فاخر عاقل ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٧.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ، مجدي وهبة ، كامل المهندس ، مكتبة ، . ١٩٧٩
- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم ، أعده حسان عبد المنان ،الرياض - المملكة العربية السعودية ، بلا . ت.